Journal of Fundamentals of Religion
Vol. 7, No. 2 (December 2023) pp: 21-52
مجلة أصول الدين
المجلد 7 العدد 2 (ديسمبر 2023) ص ص: 21-52

نشوء الحضارات الإنسانية في رؤية النظريات الفكرية "دراسة نقدية"

المها حمد أبوقبا
قسم العقيدة والدعوة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، دولة قطر
almahaalmarri@gmail.com

ملخص البحث

يتناول هذا البحث النظريات التي عُنيت بدراسة نشوء الحضارات، والعامل المؤثر في بناء الحضارات على مدار التاريخ، إذ تناولنا منها أبرز خمس نظريات بالدراسة والفحص والنقد، إذ لم تخل تلك النظريات من الخطأ أو القصور في جوانب دراساتها، والحكم على أحد العوامل بالتأثير دون غيره في محاولة لتلمس العامل الفارق في قيام تلك الحضارات، دون تحقق كامل من ذاك، وهو ما يؤكده الواقع إذ إنه إلى تلك اللحظة الراهنة لم نقف على عامل مؤثر وحيد أو نثبت أحقية إحدى تلك النظريات أن ترتقي لتكون حقيقة علمية، ومن ثم فقد تناولنا في المبحث الأول أهم النظريات الفكرية لنشوء الحضارات الإنسانية، مصدرها وفكرتها، وقام المبحث الثاني على نقد تلك النظريات وما جاء فيها من أفكار.

The emergence of human civilizations from the perspective of intellectual theories "Critical study"

Almaha Hamad Abuqaba
Department of Creed and Da'wah, College of Sharia and Islamic studies, Qatar University, State of Qatar

Research Summary
This research deals with the theories that were concerned with studying the theories that were concerned with studying the emergence of civilizations, and the influencing factor in building civilizations throughout history. He was the only one in trying to obtain a positive action result, the most important intellectual theories of the emergence of thought of human civilizations, their source and idea, and he made the second printing on the criticism of those theories and the ideas that came in them.
.

Keywords: Evolution, civilizations, humanity, man, theories, intellectual.

مقدمة

تأتي قضية نشوء الحضارات الإنسانية وتطورها على رأس القضايا الفكرية التي اهتم بها العلماء قديمًا وحديثًا، مما خلَّف كنوزًا معرفية ضخمة وحقلًا أكاديميًّا مستقلًا، واشتمل علم الحضارات على العديد من المدارس الفكرية والنظريات المختلفة؛ لاختلاف توجهات الباحثين ومسوغات البحث، وأثمر عن تنوعٍ في المناهج العلمية المتبعة في دراسة تلك الحضارات، وظهور مجموعة من النظريات التي تحاول تقديم تفسيرٍ فكريٍّ لنشوء تلك الحضارات.

وفي هذا الإطار قامت العديد من النظريات التي درست قيام الحضارات وإسهاماتها في الحياة الإنسانية، كما ثارت نظريات تشير إلى الصدام الحضاري، ونهاية التاريخ، وهو ما أدى إلى الصراع الإنساني والإحساس بالفوارق الفكرية والثقافية والاجتماعية، وما يشغلنا في بحثنا هذا هو محاولة دراسة النظريات الفكرية لنشوء الحضارات الإنسانية دراسة نقدية تقويمية.

وتحاول تلك النظريات إيجاد العامل المؤثر في نشوء تلك الحضارات، ورسم خريطة ذهنية لكل فكر منها، إذ يجنح بعض مفكريها إلى القول بأن ذاك العامل هو البيئة، في حين تذهب نظرية أخرى إلى أنه الاستجابة أو التحدي لتلك العوامل البيئية، وتأتي نظرية ثالثة للقول بأن ذاك العامل هو الجنس البشري ذاته والجينات الوراثية، ولا شك أن لكل نظرية من تلك النظريات مسوغاتها في تحديد عامل التأثير، وما استندت عليه لقيام تلك الرؤية.

ويأتي هذا البحث في محاولة لصهر تلك النظريات وعرضها ومناقشة تلك المسوغات التي قامت عليها والعمل على تقويم ما اعوج منها، ولن تقف نظريات نشوء الحضارات عند هذا الحد، بل إنه من الواجب علينا من خلال البحث العلمي المتأني، سبر أغوار نشوء الحضارات ومرضها وانحلالها وتفككها، ومن ثم إيجاد حقيقة علمية تبين الفارق والعامل المؤثر الحقيقي لقيام حضارة هنا أو هناك.

وفي تلك الآونة الحرجة من تاريخ الإنسانية، وهذا الصراع الحضاري القائم بين الشرق والغرب، - والذي لم ينته يومًا وإن خبت جذوته لفترة من الزمن – علينا دراسة الحضارات وكل

ما يتعلق بها من قريب أو بعيد والعمل على إيجاد حلٍّ لمشكلات العالم في صراعه الدائر، والعمل قدمًا على تحقيق حضارة حقيقية، تعنى بجوانب الإنسانية وتنتصر بالقيم والمبادئ على حساب المادية التي أضرت ضررًا بالغًا بضمير البشرية وأثرت بشكل واضح على حاضره.

أهمية البحث:

تبرز أهمية البحث في دراسة الحضارات وفهمها فهمًا صحيحًا؛ لاستيعاب الواقع ومشكلاته الثقافية والحضارية والسياسية المختلفة، وتشكل نظريات نشوء الحضارات وقيامها أحد أهم فصول دراسة الحضارات؛ إذ يعد موضوع قيام الحضارات ونهوضها هاجسًا دائمًا لدى الشعوب، وعليه فتكمن أهمية البحث في الآتي:

- تقديم دراسة علمية تقويمية لنظريات قيام الحضارات.
- الوقوف على عوامل وأسباب قيام الحضارات.
- نقد النظريات وتقويمها.
- البحث في أوجه ضعف هذه النظريات؛ لتقديم نظرية شاملة بديلة.

- **مشكلة البحث:**

تبحث هذه الدراسة في النظريات الخاصة بقيام الحضارات والمدارس المفسِّرة لكل الأحداث التاريخية كلٌ حسب توجهه وميوله وخلفيته الثقافية والفكرية، مما يتطلب منه بذل المزيد من الوقت والاطلاع الدائم؛ لاحتوائها والإلمام بها، وتظهر مشكلة البحث في تعدد نظريات قيام الحضارات وتوجهات كل نظرية وما تبنته من أفكار، مما يدفعنا لدراستها دراسة تفصيلية شاملة ونقدها وتقويمها.

- **أسئلة البحث:**

- ما هي أشهر نظريات الدارسة لقيام الحضارات؟
- ما مدى دقة هذه النظريات وصحتها؟
- ما توجهات وأفكار تلك النظريات؟

- **أهداف البحث:**

- التعرف على مفهوم الحضارة وكيفية قيام الحضارات.
- التعرف على أشهر نظريات قيام الحضارات.
- تقييم نظريات قيام الحضارات، ونقدها والمقارنة بينها.

- **منهج البحث:**

المنهج المستخدم في هذا البحث هو المنهج التحليلي المقارن؛ إذ تقوم الباحثة بدراسة نظريات قيام الحضارات المعروفة دراسة تقويمية وتحليلية شاملة، بالإضافة إلى المنهج النقدي بنقد النظريات الخاصة بقيام الحضارات وبيان ما بها من قصور في جوانبها.

- **الدراسات السابقة:**

من خلال البحث عن الدراسات السابقة التي تناولت موضوعًا مقاربًا لموضوعنا، وصلت الباحثة إلى دراستين، وهي:

١. حبيب، بهاء موسى، "قيام الحضارة وسقوطها في نظرية آرنولد توينبي (التحدي والاستجابة)"، مجلة كلية التربية للبنات للعلوم الإنسانية، م٢، ع٤، ٢٠٠٩.

٢. طحطح، خالد، "دورة الحضارة عند ابن خلدون"، مجلة حراء، ع٦٤، ٢٠١٩.

٣. مزاحم، هيثم أحمد، "مراجعة كتاب: فلسفة حضارات العالم، نظريات الحقيقة وتأويلها"، مجلة تبيُّن، ع١، ٢٠١٢.

وتتميز هذه الدراسة عما سبقها بتركيزها على نظريات قيام الحضارات دون غيرها من النظريات المتعلقة بدراسة الحضارات بخلاف ما ذهبت إليه الدراسة الثانية والثالثة، وتناولها أهم أربع نظريات في دراسة الحضارات -مقارنةً ونقدًا وتقويمًا- على خلاف ما تناولته الدراسة الأولى والثانية.

- **محتوى البحث:**

قُسِّمَ البحث إلى مقدمة وتمهيد ومبحثين كما يلي

تمهيد

الإطار النظري المفاهيمي

يعنى هذا المبحث بالمدخل التأسيسي لبنيته؛ إذ يهدف إلى دراسة المفاهيم الأساسية المستخدمة فيه، التي ينبني عليها أفكار البحث، فوجب الوقوف على كنهها والمقصود بها ودراسة مفهومها، إذ إن بناء المفهاهيم يعد اللبنة الأولى في التعرف على ما يشير إليه العنوان.

أولًا: الحضارة لغةً.

الحضارة لغة: من الحضور، حضر يحضر حضورًا وحضارةً، ويقال: بمحضرٍ منه؛ أي: بمشهدٍ منه"[1]، وفي مقاييس اللغة جاء تعريف الحضر بأنه: "إيراد الشيء وورود ومشاهدته، والحضر خلاف البدو، وسكون الحضر الحضارة"[2].

وباستقصاء الجذر اللغوي لمفردة "الحضارة" واشتقاقاتها، نجد أنها تدور في فلك "الحضور" ومعناه و"الشهادة" ومفهومها، وليست الإقامة في الحضر إلا إحدى الدلالات عليها، وهو ما يؤكده النظر السليم والفكر القويم؛ إذ إن الحضر والعيش فيه بتطوره يعد نتاجًا طبيعيًّا للحضارة، كما أن العلامة الفارقة في الفعل الحضاري هي "حضور" المشهد التاريخي، وشهوده وعدم الغياب عنه ولعب دور فيه[3]

ثانيًا: الحضارة اصطلاحًا:

يواجه الباحثون في هذا المجال إشكالية في تحديد تعريف الحضارة؛ للتقارب الشديد في تعريف كُلٍّ من مصطلح (الحضارة) و(الثقافة) و(المدنية)، فنجد تعريفها عند ابن خلدون بأنها

(1) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب (بيروت: دار صادر، د.ط، د.ت)، ج٤، ص١٩٦-١٩٧.

(2) ابن فارس، أبو الحسن أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون (د.م: دار الفكر، د.ط، ١٩٧٩)، ج٢، ص٧٥-٧٦.

(3) نصر، محمد عارف، الحضارة - الثقافة - المدنية، ص60.

"تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله".[1]

بينما عرَّفَ الدكتور عبد القادر عبد الرؤوف الحضارة بأنها "مجموعة المفاهيم الناتجة من وجهة نظر الأمة التي تشكل طرازًا خاصًا لها في الحياة، إذ هي طريقة معينة في الحياة".[2]

واختلف المؤرخون وعلماء الاجتماع في تعريفهم للحضارة، فمزجوا بين مصطلحي الثقافة "Culture" والحضارة "Civilization"، إذ عرَّفَهَا العالم البريطاني تايلور بأنها: "كل مترابط يتضمن المعرفة والمعتقد والفن والأخلاق والقانون والعرف وأية قدرات وعادات أخرى مكتسبة من الإنسان كعضو في المجتمع"، فيما عرفها العالم الأمريكي كيلي "بأنها نظام مستنبط تاريخيًا من أشكال للحياة التي تميل لأن تكون مشتركة من قبل أفراد أو مجموعة، يتضمن اللغة والتقاليد والعادات والمؤسسات والمعتقدات والقيم المحفزة، وتجسيدها في أدوات مادية".[3]

ويعرفها صاحب قصة الحضارة بقوله: الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي[4]

ونتيجة لهذا العرض المفاهيمي يتبين أن الحضارة بناءً ماديًّا ومعنويًّا، فأما المادي فيتمثل في منجزات الحضارة من معدات وتكنولوجيا وأبنية، وهو ما يسمى (عالم الأشياء)، والجانب المعنوي يتمثل في مفهوم الثقافة بأبعاده ومستوياته المتعددة، والذي يعبر عنه بعالم الأفكار".[5]

([1]) ابن خلدون، عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون (القاهرة: دار ابن الجوزي، ط١، ٢٠١٠)، ص٣٠٧.

([2]) عبد الرؤوف، عبد القادر، أثر الحضارة الإسلامية في المجتمعات الإنسانية (القاهرة: دار الطباعة المحمدية، ط١، ١٩٩٤)، ص٨.

([3]) The New Encyclopedia Britannica, 15 Th. Ed., Vol. 4, The University of Chicago, 1973-1974, P. 657.

(4) وِل ديورَانت = ويليام جيمس ديورَانت، قصة الحضارة، تقديم: الدكتور محيي الدّين صَابر، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمُود وآخرين، دار الجيل، بيروت - لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1408 هـ - 1988 م، (1 / 3).

([5]) السعيد، فؤاد، خليل، فوزي، الثقافة والحضارة مقاربة بين الفكرين الغربي والإسلامي (دمشق: دار الفكر، ط١، ٢٠٠٨)، ص١٢٧.

ومن خلال استقراء تلك التعريفات المتعددة للحضارة نستطيع القول إن الحضارة تعني مجمل الإنجاز المادي والمعنوي لمجتمع ما والتطور في الجانبين على حدٍّ سواء، والحضور في البناء الإنساني المستمر، وشهود هذا العطاء الإنساني.

ثانيًا: مفهوم النظرية

أولًا: تعريف النظرية لغةً: مشتقة من النظر: وهو تأمل الشيء ومعاينته.[1]، وهو: حس العين وتأمل الشيء بالعين، ومن نظر العين ونظر القلب[2]، وعليه فالنظرية في اللغة تعني تأمل وتفكر ومعاينة في مجموعة من الأفكار.

ثانيًا: تعريف النظرية اصطلاحًا:

مفهوم عام يُقْصَدُ به النظر والتفكير ويتم تقييده على حسب العلم الذي تعنى به، مثل: علم الاجتماع والتاريخ والفلسفة والعلوم السياسية وغيرها، إلا أنهم يجتمعون في استخدامها على مبدأين الأول التحليل والتفسير، والثاني الرؤية المعالجة المتكاملة.

ويشير المصطلح الأجنبي لكلمة النظرية إلى أنها مشتقة من اللفظ اليوناني "Theoria" بمعنى يدرك، والمعنى التقليدي لهذا المصطلح: "مجموع من المعرفة العقلية الخاصة المرتبطة منهجيًا ومنطقيًا"، كما تعرف بشكل عام على أنها: "مجموعة من المصطلحات والتعريفات والافتراضات لها علاقة ببعضها البعض، والتي تقترح رؤية منظمة للظاهرة، وذلك بهدف عرضها والتنبؤ بمظاهرها".[3]

ويتم تعريف النظرية بالشكل الدقيق على أنها "الإطار التصويري الملائم لتفسير الظواهر والمواضيع، لتصبح مفهومة من خلال هذا الإطار والتوجيه النظري".[4]

([1]) ابن فارس، أبو الحسن أحمد، معجم مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج٥، ص٤٤٤.

([2]) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، مرجع سابق، ج٥، ص٢١٦-٢١٧.

([3]) حكيمة، وشنان، "النظرية العلمية وعلاقتها بالبحث العلمي، البحث الاجتماعي نموذجاً"، مجلة آفاق للعلوم، ع٧، ٢٠١٧، ص266.

([4]) حكيمة، وشنان، النظرية العلمية وعلاقتها بالبحث العلمي، مرجع سابق، ص266.

وهو ما يعني أن مفهوم نظريات نشوء الحضارات هي الأطر التصويرية التي تعمل على تفسير ذاك التطور الإنساني والثقافي والمادي لمجموعة من البشر يسكنون بقعة جغرافية تجمعهم، ويتحلون نسبيًّا بذات الصفات الخَلَقِيَّة والخُلُقِيَّة، وهو ما عملت عليه تلك الدراسات النظريات في محاولة لإيجاد تفسير للبناء والعمران الذي يتميز به مجموعة عن أخرى في حقبة أو مدة زمنية فيما يعرف بالحضارة. **المصطلحات ذات الصلة:**

المصطلحات التي لها علاقة مباشرة واتصال قوي بالحضارة، إذ بها تكتمل الرؤية الذهنية لمناقشة النظريات الفكرية المفسرة لنشوء الحضارات، واقتصرنا هنا على الوقوف على مفهوم من خلال المصطلح فحسب؛ لئلا يطول المقام في التعريفات اللغوية، وتأتي تلك المصطلحات على النحو الآتي:

أولًا: الثقافة: "مجموعة من الصفات الخلقية، والقيم الاجتماعية، التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لا شعوريًا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه".[1]

ثانيًا: المدنية: مَزَجَ ول ديورانت بين الحضارة "Civilization" والمدنية "Civilian"، فعرَّف المدنية بأنها "رقة المعاملة والسلوك المهذب الذي ابتدعه سكان المدن، ويساعد على ذلك ما تقدمه الصناعة من وسائل الراحة والترف في الحياة، كذلك تفرغ بعض الناس للعلوم المختلفة والفلسفة في حين ينشغل الآخرون بالإنتاج المادي".[2]

ثالثًا: النهضة: مصطلح النهضة هو - لا شك - منبئ عن مرحلة لاحقة للسقوط، أي هي مرحلة من مراحل الحضارة تعقب الضعف والانحلال، وجمرة توقّد لبعثها من جديد، ولكنها غير لازمة، وإنما هي خيار بشري ومظهر لإرادة تحرير جبارة.[3]

([1]) بن نبي، مالك، مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين (دمشق: دار الفكر، ط٤، ١٩٨٤)، ص٧٤.

([2]) ديورانت، ول، قصة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمود (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، د.ط، ١٩٦٥)، ج١، ص٥.

([3]) ينظر بتول أحمد جندية، على عتبات الحضارة - بحث في السنن وعوامل التخلق والانهيار (دار الملتقى للطباعة والنشر والتوزيع، سورية الطبعة: الأولى، 1432 هـ - 2011 م)، ص: 12.

وتعد الحضارة أعم وأشمل من المدنية، فالعلاقة بينهما علاقة عموم وخصوص مطلق، فالمدنية جزء من الحضارة، كما تقتصر على الجانب المادي التقني والعمراني، في حين تتكون الحضارة من جانب معنوي فكري (الثقافة أو عدد من الثقافات) وجانب مادي تقني وعمراني (المدنية) فلا تقتصر على جانب واحد.

ومن ناحية أخرى فإن الحضارة أعم وأشمل من الثقافة، فالعلاقة بينهما علاقة عموم وخصوص مطلق (كلي وجزئي)، وتعتبر الثقافة بناء على ما أسلفنا جزءًا من الحضارة، إذ تقتصر على الجانب المعنوي الفكري، في حين تتكون الحضارة من جانب معنوي فكري (الثقافة أو عدد من الثقافات) وجانب مادي تقني (المدنية) فلا تقتصر على جانب واحد.

المبحث الأول: نظريات نشوء الحضارات، مصادرها وأفكارها

يهدف هذا المبحث إلى التعريف بأشهر خمس نظريات في نشوء الحضارات، من خلال التعرف على مصدرها ومنشئها، كذا الفكرة التي تقوم عليها كل نظرية، ولم يكن ترتيب النظريات على هذا النحو ترتيباً عبثِيًّا؛ إذ لم نقصد فيه الترتيب حسب الأفضلية بل قمنا بمراعاة الترتيب التاريخي من الأقدم إلى الأحدث.

مصدر نظرية الجنس أو العرق:

ترجع نظرية الجنس إلى طبيعة تفكير قديمة؛ إذ تعود جذورها إلى الفكر الروماني القديم، وقد قال بها الفيلسوف الفرنسي ألكونت دي جوبينو، المولود في 14 يوليو 1816 م، من أسرة أرستقراطية يهودية عُرِفَتْ بمعاداتها للثورة الفرنسية، وكان والده ضابطًا عسكريًا في الجيش الفرنسي، واشتهر من خلال مقالته حول تفاوت الأجناس والذي تأثر به كثير من المفكرين الإنجليز والألمان.[1]

ثانيًا: فكرتها:

يُعَرِّفْ المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي الجنس بأنه "اصطلاح يستخدم للتعبير عن توفر بعض صفات مميزة وموروثة في جماعات معينة من البشرية"، ويفسر هذه الصفات على أنها سجايا نفسية وصفات روحية يفترض وجودها بالفطرة في بعض المجتمعات[2]، ويقرر أصحاب نظرية الجنس أو العرق في قيام الحضارات، أن هناك جنسا معينا لديه القدرة على بناء الحضارة أكثر من غيره من الأجناس الأخرى، وهي امتداد لفكرة عنصرية قديمة تقول بتفوق الجنس الأبيض أو الآري وعلوه وتميزه على سائر الأجناس.

(1) المالكي، حنان، آرثر غوبينو، مجلة المعرفة.

(2) توينبي، أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة: فؤاد شبل (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١١)، ج١، ص٨٧.

ويذهب القائلون بهذه النظرية إلى أن بعض الأجناس البشرية تتقدم وتزداد قوة؛ لأن جنسها أو نفراً من قادتها مهيأ للتقدم، في حين لا تتمتع غيرها من الأجناس بذات المواهب، فيبطئ تقدمها وتميل إلى الركود في حالة بدائية أو التوقف على مستوى حضاري معين لا تتخطاه، أما الأجناس الموهوبة فتتميز غالبية أفرادها بخصائص بدنية أو خلقية أو الاثنين معًا، يتوارثها الأفراد حتى تصبح ميزة لهم عن غيرهم.[1]

ومن هنا ندرك أن اللون هو الصفة البدنية وعامل التمايز الذي يعول عليه -أكثر من غيره- أنصار نظريات الأجناس من الغربيين؛ فيقتضي ذلك ربط التفوق الروحي والذهني نوعًا ما بالنقص النسبي في صباغة البشرة (وإن كان يبدو أن ذلك غير محتمل من الناحية البيولوجية).[2]

ولا يكتفي بعض أنصار هذه النظرية عند هذا الحد، بل إنهم قالوا بأن "الإغريق الآريين" أصحاب الحضارة الإغريقية كانوا يتميزون بالمهارة في الفنون، ولكن كانت تنقصهم روح التنظيم السياسي؛ نتيجة لاختلاط دمائهم بدماء العناصر السامية، وكانت دماء الساميين قد اختلطت سابقًا بدماء الزنوج.[3]

وتصل أخيرًا إلى نتيجة مفادها أن هذا الجنس الأبيض المتميز، قد ساهم في بناء سائر الحضارات على مر التاريخ، كما أنتج عبقرية دينية وسياسية مختلفة تطورت على إثرها عدد من الدول والأديان.

نظرية البيئة:

مصدرها: تعود أصول هذه النظرية إلى الفكر الهيليني الإغريقي القديم في القرن الخامس قبل الميلاد، كما قيل إنها تعود لبعض الآراء اليونانية، إذ وردت في رسالة بعنوان: "تأثيرات الجو والماء

([1]) مؤنس، حسين، الحضارة (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، د.ط، ١٩٧٨)، ص٣٩.

([2]) توينبي، أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، مرجع سابق، ص٨٧.

([3]) كوماس، جوان، خرافات عن الأجناس، ترجمة: محمد رياض (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، د.ط، ٢٠١٤)، ص٤٨.

والموقع" وترجع إلى مدرسة هيبوقراط الطبية[1]، وقد أقرَّها ابن خلدون[2] في مقدمته، وتحديدًا المقدمة الثالثة والرابعة.

ثانيًا: فكرتها:

على غرار النظرية السابقة التي ركَّزَتْ على نوع الجنس البشري الذي يقيم الحضارة، ثم جعلت منه العامل والمسبب الوحيد أو الأولي لها، تأتي هذه النظرية التي جعلت البيئة عاملًا رئيسًا وراء قيام الحضارة، من حيث أن البيئة هي الأثر الحتمي لتكوين الصورة البدنية والعقلية للإنسان، كما أنها المكان المحيط به والذي يأخذ منه المادة والموارد الطبيعية لصناعة الحضارة.

وتتمحور فكرة نظرية البيئة حول الدور الكبير الذي تلعبه البيئة في تكوين طباع البشر الذين بدورهم يصنعون الحضارة، فتدرس تأثير البيئة في التكوين البدني والخلقي للإنسان، فمثلًا ترى أن سكان البلدان الجبلية الصخرية والمروية جيدًا على علو مرتفع يميلون لأن يكون لديهم أجسام ضخمة جبلت مزاجيًا على الشجاعة والتحمل، أما سكان التجاويف الحارة المغطاة بمروج الماء، المعرضة بشكل عام للرياح الحارة أكثر من الباردة ويشربون المياه الفاترة، فهم على النقيض ليست أجسادهم ضخمة أو نحيفة وإنما ممتلئة وأكثر سمكًا، في حين لا تكون الشجاعة فطرية في طباعهم بالدرجة نفسها،[3] والأمر متفاوت ومختلف من بيئة لأخرى.

([1]) توينبي، أرنولد، الفكر التاريخي عند الإغريق، ترجمة: لمعي المطيعي (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، د.ط، ١٩٦٦)، ص١٨١-١٨٣.

([2]) رأينا أنه من غير المعقول كتابة سيرة ابن خلدون كما فعلنا وفق المنهج المتبع مع أصحاب النظريات الأخرى، وذلك لأمرين؛ الأول: أنه ليس القائل الأول والمنشئ لهذه النظرية، والثاني: لأنه غني عن التعريف ويعتبر واحدًا من أكثر الشخصيات التي كُتب عنها في التاريخ، وتدوين نبذة عن سيرته الذاتية هنا يضيع من وقت القارئ، وفي حال الرغبة في الاستزادة أكثر حول هذه الشخصية يمكن العودة إلى: "وافي، عبد الواحد، عبد الرحمن ابن خلدون، مكتبة مصر" وهو كتاب كبير وشامل، كما يمكن العودة إلى: "حسين، محمد الخضر، حياة ابن خلدون ومُثل من فلسفته الاجتماعية (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٣)" وهي دراسة مختصرة.

([3]) توينبي، أرنولد، الفكر التاريخي عند الإغريق، مرجع سابق، ص١٨٢.

يقول ابن خلدون في وصفه لأصحاب الأقاليم المعتدلة: "فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه، بل الحيوانات، وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة الاعتدال، وسكانها من البشر أعدل أجسامًا وألوانًا وأخلاقًا وأديانًا، حتى النبوات فإنما توجد في الأكثر فيها، وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم"[1]، ويكمل واصفًا أثر البيئة المعتدلة في اعتدال البشر وأحوالهم الحضارية، قائلًا: "وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم، فتجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم، يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة، المنمقة بالصناعة، ويتناغون في استجادة الآلات والمواعين، ويذهبون في ذلك إلى الغاية، وتوجد لديهم المعادن الطبيعية من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والقصدير، ويتصرفون في معاملاتهم بالنقدين العزيزين، ويبعدون عن الانحراف في عامة أحوالهم"[2]، والسرد يطول في وصف ابن خلدون للمظاهر التي تدل على قوة تأثير البيئة في بناء الحضارات عبر التاريخ.

ثالثًا: نظرية كارل ماركس:

أولًا: مصدرها:

تعود أصول هذه النظرية كما هو واضح إلى الفيلسوف الألماني كارل ماركس، الفيلسوف والمفكر اليهودي ولد في عام ١٨١٨م في إحدى المدن من بروسيا، في أسرة متوسطة ويتسلسل نسبه من عائلة جميعهم حاخامات، لكنه اعتنق المسيحية.[3]

درس الحقوق في جامعة بون، كما درس في جامعات برلين وكولونيا، وكان متميزًا نابغًا في القانون والتاريخ والاقتصاد، عمل في الصحافة، وكان ثائرًا مشاركًا في عددٍ من الاحتجاجات في

(1) عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، 1408 هـ - 1988 م، (1/ 103).

(2) المرجع السابق، (1/ 104).

(3) أتالي، جاك، كارل ماركس أو فكر العالم، سيرة حياة، ترجمة: محمد صبح (دمشق: دار كنعان، ط١، ٢٠٠٨)، ص١٣-٢٧.

أوروبا، مما عرَّضَه للطرد من ألمانيا، وتنقَّلَ بين عددٍ من المدن الأوروبية، مثل: بروكسل حيث تَعَرَّفَ فيها على انجلز، وباريس التي وثَّقَ فيها صلته بالاشتراكيين الفرنسيين، وتوفي في إنجلترا عام ١٨٨٣م، وهو في الرابعة والخمسين من عمره[1]، واشتهر بكتاباته المثيرة للجدل وأهمها: "البيان الشيوعي" الذي كتبه مع صديقه انجلز، وثلاثية "رأس المال" الذي يعد من أهم المراجع في نقد الرأسمالية.

ثانيًا: فكرتها:

يرى ماركس أن الإنتاج الاقتصادي والبنية الاجتماعية المتفرعة عنه بالضرورة، يشكلان في كل حقبة تاريخية أساس التاريخ السياسي والفكري لهذه الحقبة؛ ومن ثم فإن تاريخ أيَّ مجتمع هو تاريخ صراعات طبقية، بين طبقات كانت تقف موقف المعارضة الدائمة لبعضها، حر وعبد، نبيل وعامي، بارون وقن، معلم وصانع[2]، ويحدث هذا الصِّرَاع بسبب ملكية وسائل الإنتاج من قبل الطبقة المسيطرة، فيقوم بتقسيم التاريخ إلى أربع مراحل:

- عصر المشاع البدائي: وهو العصر الذي كان يعيش فيه الإنسان البدائي مطلقًا من أي قيد، يتنقل ويعيش أين ما يريد، ويأكل بقدر حاجته، فلا يعتدي ولا يسعى للسيطرة على غيره، وهذا هو النموذج المطلوب عند ماركس، ولكن البشرية قد تَعَدَّتْه بسبب ظلم صنف من الناس الذين أرادوا تملك الأرض التي هي وسيلة الإنتاج (الطعام والزرع والماء)؛ ولأن الأرض تحتاج من يقوم عليها بدأ ظهور استعباد الناس[3].
- عصر الاستعباد: بدأ في هذا العصر ظهور الطبقات، إذ اقتضت سيطرة البعض على الأرض استعبادا للبعض الآخر -ظلمًا وعدوانًا- من أجل العمل في الزراعة في هذه الأرض، وهكذا تكون عصر العبودية -في منظور ماركس- حيث انقسم المجتمع إلى طبقة السادة وطبقة العبيد.

([1]) أتالي، جاك، كارل ماركس أو فكر العالم، سيرة حياة، مرجع سابق، ص٥٠-٣٢٧.

([2]) ماركس، كارل، انجلز، فريدريك، البيان الشيوعي، ترجمة: العفيف الأخضر (بيروت: منشورات الجمل، ط١، ٢٠١٥)، ص٢٨.

([3]) سلطان، جاسم، فلسفة التاريخ (المنصورة: مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع، ط٤، ٢٠١٠)، ص١٠٢.

- عصر الاقطاع: يأتي هذا العصر بعد تطور قوى الإنتاج واختراع أدوات الزراعة والصناعة البسيطة، فظهرت طبقة الإقطاع (مالكو الأرض)، وزادت مساحة المستعبدين؛ فبالإضافة إلى العبيد الذين يتم شراؤهم، هناك الفلاحون الذين يأكلون من الأرض بقدر ما يملأ بطونهم، والباقي يذهب إلى السادة، وهكذا انقسم المجتمع إلى ثلاث طبقات: إقطاعيين، فلاحين، وعبيد.
- عصر الرأسمالية: بعد تضاعف قوى الإنتاج وحلول المصانع الكبيرة والتجارة محل الزراعة والحرف المهنية، بدأت تظهر الطبقة البرجوازية (ملاك المصانع وأصحاب رؤوس الأموال)، لتحل محل الإقطاع، فيظهر صراع جديد بين هذه الطبقة وطبقة العمال (البروليتاريا)، الذين أصبحوا عبيدًا يعملون في المصانع ولا يحصلون على ما يكافئ عملهم، بل يذهب الخير كله إلى السيد صاحب المصنع[1].

وهكذا يرى ماركس أن الحل في العودة إلى النموذج المشاع أو الشيوعي، الذي ينطلق من توعية العمال واتحادهم "يا عمال العالم اتحدوا"، وتحريك الأحزاب الاشتراكية التي تصل إلى الحكم ثم تهيئ المجتمع للشيوعية لتحقيقها.

وتزامنًا مع إلغاء الدولة يجب التخلص من المِلْكِيَّة الخاصة، إذ هي التعبير المادي عن الحياة الإنسانية المغتربة، وحركتها -الإنتاج والاستهلاك- وهي الانكشاف الحسي لحركة كل الإنتاج إلى اللحظة الراهنة؛ فالدين والعائلة والدولة والقانون والعلم والفن كلها أساليب إنتاج خاصة تخضع لقانونه العام، ومن هنا فإن التخطي الإيجابي للملكية الخاصة هو التخطي الإيجابي لكل اغتراب وعودة الإنسان من الدين والعائلة والدولة إلى وجوده الإنساني؛ أي: الاجتماعي.[2]

([1]) سلطان، جاسم، فلسفة التاريخ، مرجع سابق، ص١٠٣-١٠٤.

([2]) ماركس، كارل، مخطوطات عام ١٨٤٤ الاقتصادية والفلسفية، ترجمة: محمد مصطفى (القاهرة: دار الثقافة الجديدة، د.ط، د.ت)، ص٩٧.

نظرية التحدي والاستجابة:

أولًا: مصدرها:

تعود هذه النظرية إلى المؤرخ والفيلسوف البريطاني أرنولد توينبي، الذي ولد في لندن بتاريخ ١٤ أبريل عام ١٨٨٩م، ونشأ في أسرة ليبرالية مستقرة من الطبقة الوسطى العليا[1]، كان أبوه من دعاة الإصلاح الاجتماعي، وكانت أمه خريجة إحدى الجامعات البريطانية، فاكتسب منها حب التاريخ الذي أخذته من عمها -وهو قبطان متقاعد- كذلك حب الرحلات البحرية المثيرة.[2]

وتلقى تعليمه بكلية وتنشستر، ثم التحق بجامعة أكسفورد لدراسة التاريخ القديم، وعمل بعدها مدرسًا بذات الجامعة[3]، ثم أستاذًا لمادتي اللغة البيزنطية واليونانية الحديثة والآداب اليونانية القديمة والتاريخ اليوناني القديم بجامعة لندن، وأمضى ثلاثين سنة أستاذًا باحثًا للتاريخ الدولي ومديرًا في المعهد الملكي للدراسات الدولية في لندن، كما اشتغل خلال الحربين العالميتين بوزارة الخارجية البريطانية، واختير عضواً بالوفد البريطاني بمؤتمر الصلح في باريس عامي ١٩١٩ و١٩٤٦م.[4]

وتأثر بالفكر اليوناني، وبمقدمة ابن خلدون، والشاعر الألماني جوته، وله إنتاج فكري كبير في التاريخ، والحضارة، والدين، والسياسة، إذ قام بتأليف عدد من الكتب أشهرها: "دراسة للتاريخ" المكون من عشر أجزاء، وكذلك "الفكر التاريخي عند الاغريق"[5].

([1]) الزعبي، أمجد، "من التحدي والاستجابة إلى الدولة العالمية: قراءة في فلسفة أرنولد توينبي"، مجلة الآداب، ع١٢٨، ٢٠١٩، ص٣٨٠.

([2]) حبيب، بهاء موسى، "قيام الحضارة وسقوطها في نظرية أرنولد توينبي"، مجلة كلية التربية للبنات للعلوم الإنسانية، مج٢، ع٤، ٢٠٠٩، ص١٢٥.

([3]) علم الدين، نيفين، فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١)، ص٢٢.

([4]) شبل، فؤاد محمد، "دراسة للتاريخ لأرنولد توينبي"، مجلة تراث الإنسانية، مج٣، ٥، ١٩٦٥، ص٣٣٣.

([5]) الزعبي، أمجد، "من التحدي والاستجابة إلى الدولة العالمية: قراءة في فلسفة أرنولد توينبي"، مرجع سابق، ص٣٨٣.

ثانيًا: فكرتها:

درس توينبي تاريخ الحضارات والمجتمعات البشرية، وخرج بنظرية "التحدي والاستجابة" التي تقوم على أساسين، هما: وجود تحديات تثير استفزاز الإنسان وتدفعه للتصدي والعمل، واستجابة صحيحة للتغلب على هذا التحدي لبناء الحضارة واستمرارها.

ويرى توينبي بعد انتقاده لبعض النظريات التاريخية أن الحضارة لا تقوم بفعل بيئة أو جنس بشري معين ذي خصال محددة، ولا بسبب تناقض بين الطبقات الاقتصادية، وإنما تقوم بفعل مجموعة من العوامل الطبيعية والبشرية التي تسمى "التحديات"، والتي بدورها تقوم بتحفيز الشعوب وتحريكها لصنع الحضارة.[1]

ومن ثم يتولى مهمة التفاعل مع التحدي أقلية من السكان تتصف بالإبداع الفكري والاجتماعي والسياسي والعسكري، تتعاون مع باقي أفراد المجتمع للتغلب على التحدي وتذليل قوى الطبيعة لخدمة بلادهم.[2]

ومن خلال تجول توينبي في الكثير من مدن العالم لدراسة ما يقارب إحدى وعشرين حضارة دراسة مقارنة (كالمصرية والسومرية والصينية وغيرها)، يعزز نظريته بجملة من الأدلة الواقعية التي دوَّنَهَا عن تلك الحضارات، إذ يلاحظ أن الحضارة الغربية نشأت من الهيلينية أخذًا من المينوئية، كما نشأت سائر الحضارات المتصلة عن أسلافها القديمة عن طريق تحدٍ بشري بالدرجة الأولى متمثل في الفئة المسيطرة[3]، وجاءت الحضارة الصينية نتاج التحدي الطبيعي للبيئة الصعبة والاستجابة السديدة المتمثلة في كفاح الصينيين [4]، كما يعتقد أن تاريخ البشرية سلسلةً طويلةً من التحدي والاستجابة، حيث شرارة الإبداع لا تشتعل إلا بعد تحدٍ واستجابة.

([1]) توينبي، أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة: فؤاد شبل (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١١)، ج١، ص١١٢-١٢١.

([2]) حبيب، بهاء موسى، قيام الحضارة وسقوطها في نظرية أرنولد توينبي، مرجع سابق، ص١٢٨.

([3]) خليل، عماد الدين، التفسير الإسلامي للتاريخ، (بيروت: دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٨١)، ص٧٦.

([4]) توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، مرجع سابق، ص١٢٣-١٢٤.

نظرية مالك بن نبي:

أولًا: مصدرها:

تعود هذه النظرية للمفكر والفيلسوف الجزائري مالك بن نبي، والتي ظهرت في محاضراته وبعض كتبه، لا سيما كتابه "شروط النهضة" الذي لاقى انتشارًا واسعًا واهتمامًا كبيرًا من قبل الشباب المسلم، ولد في الجزائر عام ١٩٠٥م، في مدينة قسنطينة[1]، ونشأ في أسرة متواضعة محافظة، أقرب إلى البداوة، وكان لجدته "بايا" التي عانت وأسرتها أيام الاستعمار الفرنسي في الجزائر أثر كبير في حياته، ظلت حكاياتنا الحزينة ترافقه إلى أن كبر[2].

وتعلم مالك بن نبي في المكتب القرآني ثم المدرسة الفرنسية، مما جعله متمكنًا من العلوم الإسلامية في بداية حياته، كما كان ذا هوية إسلامية أصيلة، ومن ثم انفتح على العلوم الأخرى.

درس الهندسة الكهربائية في فرنسا، وخلال إقامته في بلاد الغرب التفت لقراءة التاريخ والفلسفة والعلوم الاجتماعية، فكان واسع الاطلاع على الفلسفة الألمانية، والعلوم الاجتماعية الفرنسية، وفلسفة التاريخ البريطاني، إلا أنه حافظ على هويته الثقافية، وشخصيته الإسلامية المميزة، التي ظلت تشعره بالحساسية تجاه الاستعمار الفرنسي والثقافة الاستعمارية بشكل عام، فبدا ذلك واضحًا في كتاباته وبخاصة لما كتب حول فكرة "القابلية للاستعمار".[3]

تجول في عدد من البلدان العربية محاضرًا، وكتب الكثير من المؤلفات الثقافية والفكرية القيّمة مثل: مشكلات الحضارة، شروط النهضة، وجهة العالم الإسلامي، مشكلة الثقافة، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، الظاهرة القرآنية وغيرها الكثير الذي نشر بعد وفاته.

(1) بن نبي، مالك، مذكرات شاهد للقرن (دمشق: دار الفكر، ط٢، ١٩٨٤)، ص١٥.

(2) بن نبي، مالك، مذكرات شاهد للقرن، مرجع سابق، ص١٦-٢١.

(3) بن نبي، مالك، شروط النهضة، تقديم: رضوان السيد (الدوحة: وزارة الثقافة والفنون والتراث، د.ط، د.ت)، ص٩-١١.

ثانيًا: فكرتها:

تتمحور فكرة هذه النظرية حول أهمية الدين في قيام الحضارات، أو "الفكرة الدينية" التي تعتبر أهم عوامل تحريك المجتمعات والأفراد، وهو بخلاف ما يراه كارل ماركس الذي يَعْتَبِرْ الدين أفيون الشعوب.

وفي الوقت الذي انتقد فيه مالك بن نبي بعض النظريات السابقة؛ لاعتمادها على حالة واحدة وجعلها قاعدة ونظرية عامة لكل الشعوب، كذا إهمال الجانب المعنوي المتمثل في الفكر الديني الذي يُكَوِّنْ الإنسان ويدفعه لبناء الحضارة، يقوم مالك بالتأكيد على أهمية كل مكونات الحضارة (الانسان والتراب والوقت)[1] بالإضافة إلى الفكرة الدينية، فحين يطبق هذه النظرية على الحضارة الإسلامية، يميز فيها عاملان هما "الفكرة الإسلامية" التي هي الأصل، و"الإنسان المسلم" الذي هو السند المحسوس لهذه الفكرة، فيقول: "وعليه فإنَّ مما ينسجم وطبيعة الأشياء حينما ندرس تطور هذه الحضارة أن ندرس من حيث الأساس العلاقة العضوية التي تربط الفكرة بسندها، فكل القيم النفسية – الزمنية التي تُميز مستوى حضارة ما في وقت معين، ليست إلا الترجمة التاريخية لهذه العلاقة العضوية بين فكرة معينة كالإسلام، والفرد الذي يمثل بالنسبة إليها السند المحسوس، وهو هنا المسلم".[2]

وتكمن أهمية الفكرة الدينية في دورها الكبير في تهذيب وتوجيه سلوك الإنسان، بإخضاع غرائزه ومنحه الوعي وحثه على الحركة والنشاط، وفي المقابل توحيد المجتمع وتعزيز التضامن والتكافل فيه؛ مما يضمن انتقال مسؤولية بناء الحضارة من جيل لآخر بالشكل الذي يحفظ استمرارها ودوامها، وهكذا تكون هذه النظرية قد راعت الكثير من الجوانب الاجتماعية والنفسية والتاريخية لتفسير قيام الحضارة.

([1]) بن نبي، مالك، شروط النهضة، مرجع سابق، ص٧٧-٩٥.

([2]) بن نبي، مالك، شروط النهضة، مرجع سابق، ص١٠٤.

المبحث الثاني: نظريات قيام الحضارات دراسة نقدية

يُعنى هذا المبحث بنقد وتحليل نظريات نشوء الحضارات التي تناولناها في المبحث السابق والمقارنة بين أفكارها، بطرح أهم الآراء الناقدة التي وُجِّهَتْ لكل نظرية، ومن ثم تقرير رأي الباحثة في كل هذه النظريات.

نقد نظرية الجنس أو العرق.

تعرضت هذه النظرية للنقد الشديد، لسببين، أولهما: أنها من أقدم النظريات، والآخر: اعتمادها على أساس عنصري غير منطقي ترفضه العقول المفكرة، ويعد أرنولد توينبي من أفضل من نقد هذه النظرية في كتابه "دراسة للتاريخ"، إذ قام بعرض إسهامات كل الأجناس في الحضارات المختلفة، بحيث يُقَسِّمْ علماء الأجناس الجنس الأبيض إلى ثلاثة أنواع: (النوردي، والألبي، وسكان البحر الأبيض المتوسط)، وعليه فقد ساهم النورديون في أربع أو خمس حضارات، فيما أسهم الألبيون في سبع إلى تسع حضارات، كما أسهم سكان البحر الأبيض في عشرٍ من حضارات العالم، وفي المقابل أسهم الجنس الأسمر في حضارتين، والأصفر في ثلاث حضارات، أما الأحمر فقد أسهم بمفرده في الحضارات الأمريكية الأربع، فيما لا تزال العناصر السوداء لم تسهم بعد في أية حضارة؛ فيما يعني أن الحضارة ليست حكرًا لجنس دون آخر، فتاريخ البشرية يشهد بذلك، وفي حين قسمنا الجنسين الأصفر والأسمر إلى عدة فصائل فرعية كما فعلوا مع الجنس الأبيض، نصل إلى أن كل حضارتنا قامت بمساهمة أجناس مختلفة، ولن نجد جنسًا مُنفْرِدًا قام ببناء حضارة كاملة.[1]

ويقول حسن مؤنس في كتابه (الحضارة): "القول بأن الجنس الأبيض ينفرد وحده بصنع الحضارات أو معظمها إنما هو وهم وادعاء لا يقوم على أساس، ونظرية تميز جنس على جنس إنما

(1) توينبي، أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، مرجع سابق، ص٩٠-٩٢.

هي تشويه وتزييف لحقيقة بناء التاريخ، وعند الحساب الدقيق نجد أن الجنس الأبيض لم يسهم بأكثر مما أسهم به غيره".[1]

وترى الباحثة أن هذه النظرية تنطلق من فكرة غير عقلانية، فلا تقف على أي أساس منطقي يمكن للعقل تقبله ولو مبدئيًا؛ وربما يعود ذلك لِقِدَمِها إذ إنها امتداد لعصر سادت فيه الخرافة على العقل والمنطق، فلا نعتقد بأن هناك من يقول بها اليوم؛ إذ تتطور مستويات التفكير مع تقدم الزمن وتطور العلوم.

وإذا سلمنا بأن بعض الأجناس أفضل من غيرها، لا يمكن تفسير نشوء أي حضارة قامت في التاريخ اعتمادًا على نوع الجنس الذي أقامها؛ لأنه بمثابة غض النظر عن العوامل الداخلية والخارجية الأخرى، فإذا كانت الحضارة تتكون من ثنائي الثقافة والمدنية، فلا بد من استحضار تأثير كل من الدين والعلم والموارد الطبيعية والظروف المحيطة (السياسية والاجتماعية)، وكذلك القوة المتمثلة في التعداد السكاني والموارد البشرية؛ فلا يمكن تأسيس حضارة من دون توافر مجموعة من المسببات، وتضافر الجهد الكثير، وإلا كان قيامها مستحيلًا؛ وعليه فإن نظرية الأجناس نظرية مردودة وليست قاصرة فقط، بل تفتقد أبسط مقومات الحجة والإقناع.

نقد نظرية البيئة:

نُقِدَتْ نظرية البيئة بأنها تعطي أفكارًا مغلوطة حول مدى تأثير البيئة على الإنسان، فمثلًا: من الأفكار التي تقدمها هذه النظرية: "أن البيئة المعتدلة أعون للإنسان على التقدم من البيئة الحارة، وأن البيئة الباردة المناخ تحفز على العمل وتنشط على السعي، وهو رأي صحيح من حيث نتيجته لا من ناحية منطقيته؛ لأن الجو الحار يُفْتِرْ الهمة إلى العمل ولكنه لا يقضي على النشاط الذهني، فقد قامت حضارات كبرى في بلاد حارة مثل الهند وأفريقيا المدارية والاستوائية، وظهر رجال

(1) مؤنس، حسين، الحضارة، مرجع سابق، ص٤٣.

نوابغ يمتازون بنشاط ذهني وبدني متدفق، من أمثال يوسف بن تاشفين ومنسي كنكن موسى ملك مالي، وماري جاطة وكان من أعاظم حكام أفريقيا الغربية المدارية وغيرهم".[1]

وقام توينبي بنقد هذه النظرية من خلال دراسة كل بيئة قامت فيها حضارة ومن ثم مقارنتها مع مثيلاتها من البيئات المشابهة؛ إذ يقتضي المنطق أن تقوم حضارة في هذه البيئات المماثلة لها إذا سلمنا بنظرية البيئة، وهو ما أثبت عكسه، فمثلًا يوجد في وادي الأردن ووادي السند بيئة مماثلة للبيئة الموجودة عند نهر النيل في مصر ووادي دجلة والفرات، إلا أن وادي الأردن ووادي السند لم يشهدا قيام أية حضارة على عكس مثيلاتها في وادي النيل حيث قامت الحضارة المصرية وكذلك وادي دجلة والفرات حيث ظهرت الحضارة السومرية[2]، وغيرها الكثير من الأمثلة لعدد من البيئات المتطابقة في الشكل والمناخ والتربة ومع ذلك قامت حضارة في إحداها دون أن تقوم أية حضارة في مثيلاتها.

وتتسم نظرية البيئة بالمبالغة غير الموضوعية والقصور الواضح في أفكارها، حيث جعلت من البيئة العامل الرئيس لنشوء الحضارات، وهو ما يثبت التاريخ البشري عكسه، إذ قامت كل حضارات العالم في بيئات مختلفة تمامًا، ولم تقم في مناطق متشابهة أو في أقاليم محددة دون الأخرى، وهذا ما يعني أن البيئة عامل ثانوي وغير حتمي لقيام الحضارة، بل إن العقل يقتضي تحكم الإنسان بالبيئة وتطويعها له مهما كانت قاسية.

نقد نظرية كارل ماركس:

تعرضت نظرية كارل ماركس للنقد من قبل كثير من الباحثين في دراسة التاريخ، يمكن أن نحصر بعضها في النقاط التالية:

- يقول كارل فيدرن: "إن قوى الإنتاج وظروفه بينهما علاقة تأثير، كما أن اختراع أسلحة جديدة يؤثر في الحروب ويحدد نتيجتها، والحروب تؤدي دائمًا إلى اختراع أسلحة جديدة،

(1) مؤنس، حسين، الحضارة، مرجع سابق، ص٢٧.

(2) توينبي، أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، مرجع سابق، ص٩٧-٩٨.

وأشكال التنظيم العسكري ومع ذلك فلن يزعم إلا مخبول أن تطور الأسلحة وتنظيم الجيش هو سبب الحرب والعامل الأساسي في التاريخ العسكري".[1]

- إذا كان أسلوب الإنتاج هو العامل الحاسم في حياة الفرد أو المجتمع، وجب أن يتصرف الأشخاص أو المجتمعات التي تواجه نفس النوع من المشاكل الاجتماعية، وفق نفس الأسلوب، لكن الذي يحدث في كثير من الأحيان هو العكس.[2]
- أعلن كارل فيدرن الحرب على الأديان باعتبارها أفيون الشعوب[3]، من واقع تجربته التي عاشها في ظل الدين المسيحي، هو تعميم للخاص وجعله قاعدة عامة في نظريته، وهو خطأ منهجي فادح فكل دين مختلف عن الآخر ولا يمكن الحكم المسبق عليه من واقع تجربة شخصية مع دين آخر مختلف تمامًا.

ولعل أعظم خطأ وقع فيه ماركس هو التركيز على الجانب الاقتصادي في تفسيره للتاريخ والعلاقات الاجتماعية، وبهذا فهو يقع في نفس أخطاء من سبقوه، في جعل جزء من العوامل كل العوامل والسبب الأولي، في حين قد لا يكون من أكثرها أهمية أصلًا.

وتقتضي النظرية كما قمنا بتعريفها مسبقًا[4] أن يُقدم المُنظر حلًّا للمشكلة بتحليله للوضع كما هو وكما ينبغي أن يكون، في حين لم يقم ماركس بتقديم رؤية معالجة للمشكلة التي قام بتحليلها في تفسيره لمراحل التاريخ غير الثورة، وقد لا تكون حلًا للمشكلة ولا تلائم كل المجتمعات.

يعد ماركس من أفضل من قام بنقد الرأسمالية واستغلال وسائل الإنتاج، كونه قد نشأ في مرحلة ذروة الرأسمالية وعرفها من الداخل، وهذا يجعلنا نفهم سبب تفسيره المادي للتاريخ والعلاقات الاجتماعية فيه، وفي الوقت ذاته قد يعيننا في فهم الرأسمالية فهمًا ونقدًا وتحليلًا، إلا أن الحلول التي قدمها كانت قاصرة، ويمكن استبدالها بالحلول الإسلامية الاقتصادية والاجتماعية.

([1]) خليل، عماد الدين، التفسير الإسلامي للتاريخ (بيروت: دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٨١)، ص٥٤-٥٥. نقلًا عن: Federn, Karl: The Materialist Conception of History, P:23.

([2]) خليل عماد الدين، التفسير الإسلامي للتاريخ، مرجع سابق، ص٥٢.

([3]) سلطان، جاسم، فلسفة التاريخ (المنصورة: أم القرى للترجمة والتوزيع، ط٤، ٢٠١٠)، ص١٠٩.

([4]) راجع المبحث الأول، المطلب الرابع: مفهوم النظرية.

وإذا ما أردنا تقويم نظرية ماركس التاريخية هذه والوقوف على مدى صحتها، يستوجب علينا دراسة كل الحضارات التي قامت في التاريخ والظروف التي أدت إلى نشوئها، فهل قامت كل هذه الحضارات بفعل الصراع الطبقي في المجتمع؟ أو هل قامت إحدى هذه الحضارات بفعل الصراع على وسائل الإنتاج؟ وهل كان هذا العامل والمسبب الوحيد لقيامها؟ بالطبع لا، وهذا ما أثبته تاريخ البشرية.

نقد نظرية التحدي والاستجابة:

ظهرت أبحاث كثيرة تنتقد نظرية أرنولد توينبي "التحدي والاستجابة" في تفسير التاريخ ونشوء الحضارات، وفي الوقت ذاته تُقر معظمها بأهمية هذه النظرية والجهد الذي بذله توينبي في دراسته للحضارات، ومن أهم الدراسات الناقدة لها ما قدمه (بترم سوروكن) و(بيتر جيل)، فيرى سوروكن أن النظرية متهافتة في مبدأين أساسيين: أولهما اعتباره الحضارة وحدة معقولة للدراسة التاريخية، ثم يقوم بمناقضة هذا الاعتبار فيما بعد، أما ثانيهما اعتبار الأدوار الحضارية من النشوء إلى النمو ثم السقوط والانحلال أساسًا لفلسفته التاريخية[1]، بالإضافة إلى بعض الأخطاء الفرعية الأخرى، مثل:[2]

- تقسيمه الحضارات إلى دنيا وعليا، إلى مجهضة ومتوقفة ومتحجرة، يصبح تقسيمًا عبثيًّا لا يمكن الاعتداد به.
- اعتبار توينبي دور النشوء الحضاري فترة سلام دائم، لا يؤيده واقع الأحداث التاريخية، فعلى سبيل المثال كانت الحضارة الغربية في نظره تنعم قبل القرن الخامس عشر بدور النمو، في حين تثبت الوقائع التاريخية أن القرنين الثالث والرابع عشر كانا من أشد القرون فتنةً وقلاقل في تاريخ أوروبا كلها، بالإضافة إلى أن أدوار الانحلال في كثير من الحضارات كانت أكثر سلامًا من أدوار النشوء والازدهار.

(1) خليل عماد الدين، التفسير الإسلامي للتاريخ، مرجع سابق، ص٨٩-٩١.

(2) خليل عماد الدين، التفسير الإسلامي للتاريخ، مرجع سابق، ص٩١-٩٤.

- يلجأ توينبي كثيرًا إلى الاستشهاد من تاريخ الدول القومية، رغم أنه لا يعترف بها كوحدات للدراسة التاريخية، فكان عليه أن ينتزعها من تاريخ الحضارات لو صح وجودها وحدات مستقلة، كي لا يقع في هذا التناقض الصريح.
- عدم التزامها بالمنهج التجريبي الذي صرَّح باستخدامه، من خلال عجزه عن (تحقيق الفرض) بالتجربة الحاسمة، وعزله (الأجزاء) حتى لم تعد ذات دلالة معينة في بناء (الكل).

ونرى أن نظرية توينبي قد تفوقت على سابقاتها من النظريات الأخرى، حيث جاءت بعد دراسة ميدانية لبيئة كل حضارة، وتمحيص للنظريات السابقة والاستفادة من إيجابياتها وتجنب النواقص والأخطاء التي وقعت فيها كل نظرية، حيث قام بنقد عدد من النظريات السابقة مثل: البيئة والجنس وغيرهما، مما يجعله مهيئًا لتقديم نظرية جديدة بعد هذه الدراسة الطويلة والمخزون العلمي الذي جناه أثناء بحثه كل هذه السنوات، واستطاع توينبي التوفيق بين عدد من الجوانب الروحية والمادية، فلم يغفل عن دور كل من الدين القيم والأخلاق من جهة، والدور المادَّي في القدرة على الاستجابة ومواجهة التحديات بالقوة، إلا أنه قد وقع في خطأ عندما جعل التحديات الداخلية أو الخارجية السبب الدافع لقيام الحضارات، فلا يمكن أن تقوم حضارة دون تحدٍ أو مشكلةٍ ما تحفز الإنسان على العمل لمواجهة هذه التحديات وحل المشكلات الطارئة، وهو ما يجعل الحضارة مشروطة بوجود تحدٍ مسبق، والحقيقة أن كثيرًا من الحضارات قامت دون هذا الشرط، مثل: الحضارة الإسلامية التي قامت بعد نزول الوحي وانتشار الدعوة.

ومن ثم فإن تأثر توينبي بنظرية البطل الذي يصنع التاريخ، جعلته يعزو سبب نشوء كل الحضارات إلى قلة مبدعة، بينما لا تعني الأقلية المبدعة شيئًا دون إتاحة المجال لها وسماع صوتها ودعمها من قبل الأكثرية التي تمتلك القوة المادية الفاعلية الحقيقية التي من شأنها بناء الحضارة، وهذا كله يستلزم أعلى قدر ممكن من الوعي المجتمعي، وليس الاعتماد على أقلية واعية ومبدعة.

واعتمد توينبي في تقسيمه لمراحل الحضارة على تقسيم ابن خلدون، والإشكال هنا أن دراسة ابن خلدون كانت تركز دائمًا على الدول والإمبراطوريات، في حين يدرس توينبي المجتمعات

الكبيرة والحضارات، والمعهود أن ولادة الحضارات مختلف عن ولادة الدول، فحينما نقول إن الدولة القومية ظهرت في الغرب بعد أحداث معاهدة ويستفاليا، لا يمكن أن نرجع ظهور الحضارة الغربية إلى حدث أو تحدٍ محدد كانت الاستجابة له سبب قيامها.

نقد نظرية مالك بن نبي:

تم نقد نظرية مالك بن نبي من قبل دراسات قليلة؛ إذ اكتفت معظمها بشرح النظرية وامتداح صاحبها، أو استخلاص بعض الدروس منها، إلا أن الدكتور فهمي جدعان قام بنقدها في عدد من دراساته منها كتاب أسس التقدم عند مفكري الإسلام، ومن المآخذ التي دونها عن نظرية مالك بن نبي: أنها تقوم على فكرة خصوصية الحضارة الإسلامية، وفي الوقت نفسه يتضح تأثره بأفكار غربيين من خلال الرجوع إلى تفسيراتهم وتحليلاتهم، فيقول: إن إلحاح بن نبي على الطريق الأصيل للحضارة الإسلامية لم يمنعه من استلهام أفكار كسرلنج وفرويد وغيرهم، بل يمكن القول أنه قد أسرف في الاعتماد عليها في بناء جانب مهم جدًا من تحليلاته الحضارية.[1]

ولقد تميزت نظرية مالك بن نبي عن ما سبقها من نظريات وإنتاجات للعقل البشري في دراسة نشوء الحضارات، ويكمن هذا التميز في عدة أسباب يمكن إجمالها فيما يأتي:

- استفادته من أكبر قدر من النظريات السابقة، إذ يعتبر متأخر عن أرنولد توينبي؛ وهذا ما يجعل نظريته أكثر شمولًا.
- جمع مالك بن نبي بين الجانب الحضاري المادي والمعنوي، فلم يتجاهل أي منهما، فنراه يؤكد على دور الفكرة الدينية واستغلال الوقت، ولا يتغافل عن دور التراب (المادة) الأساسي في تكوين كل حضارة.
- تمكنه من المنهج العلمي والتجريبي الرياضي في وصفه لمركب الحضارة، حيث كان متخصصًا في هذه العلوم (هندسة كهربائية)، على خلاف توينبي الذي لم يكن متخصصًا في هذه العلوم، فلم يتمكن من منهجها.

(1) جدعان، فهمي، أسس التقدم عند مفكري الإسلام (عمان: دار الشرق، ط3، 1988)، ص423-427.

ولم تخلُ نظرية مالك بن نبي من الأخطاء، فتخصيصه للفكرة المحركة والدافعة لبناء الحضارة بالدين، يعني أن كل الحضارات كانت تقوم على أساس الدين، وهذا منافٍ للواقع؛ إذ قامت الحضارة الغربية بأفكار علمانية وأيدولوجية مضادة للدين، في حين نشأت الحضارات الشرقية بفلسفات مختلفة وليست بفكرة دينية بحتة.

وتأثر مالك بن نبي بشكل واضح بفكر ابن خلدون الحضاري، كما اشترك مع كارل ماركس بتقديم نظرية نابعة عن معاناة المجتمع الذي ينتمي إليه، فكانت جل آرائه موجهة إلى مجتمعه، وهو ما عبرت عنه فكرة (القابلية للاستعمار) و(ملكية وسائل الإنتاج والصراع الطبقي)، على خلاف نظرية توينبي التي وصل إليها عن طريق الرحلات المتكررة إلى أماكن مختلفة لحضارات متعددة.

الخاتمة

تناولنا في بحثنا هذا خمس نظريات مختلفة من حيث المصدر والفكرة (نظرية الجنس أو العرق، نظرية البيئة، نظرية كارل ماركس المادية، نظرية التحدي والاستجابة لأرنولد توينبي، ونظرية مالك بن نبي المتمثلة في الفكرة الدينية)، ووقفنا من خلال تلك الدراسة على مجموعة من النتائج والتوصيات:

أولًا: النتائج:

- يدور الجذر اللغوي لمصطلح الحضارة في فلك "الحضور" ومعناه و"الشهادة" ومفهومها، إذ إن العلامة الفارقة في الفعل الحضاري هي: "حضور" المشهد التاريخي، وشهوده وعدم الغياب عنه والتأثير القوي فيه.
- الحضارة تعني مجمل الإنجاز المادي والمعنوي لمجتمع ما والتطور في الجانبين على حدٍّ سواء، والحضور في البناء الإنساني المستمر، وشهود هذا العطاء الإنساني.
- مفهوم نظريات نشوء الحضارات هي الأطر التصويرية التي تعمل على تفسير ذاك التطور الإنساني والثقافي والمادي لمجموعة من البشر يسكنون بقعة جغرافية تجمعهم، ويتحلون نسبيًّا بذات الصفات الخَلَقِيَّة والخُلُقِيَّة.
- بعض النظريات كان لها عدد من المصادر أو الأعلام القائلين بفكرتها، في حين اقتصرت معظمها على مفكر واحد ومن ثم تبعه المؤيدون لفكرته.
- التزمت معظم تلك النظريات جانبًا واحدًا أو زاوية واحدة لتفسير الحضارات، في حين جنحت كل من نظرية توينبي ومالك بن نبي لمراعاة عددٍ من الجوانب والزوايا.
- كان لعامل تقدم الزمن وتأخره أثر واضح في قوة وضعف حجة كل نظرية؛ فكانت القاعدة المتكررة التي لاحظناها أنه كلما تأخر الزمن كانت النظرية أكثر نضوجًا وشمولًا.

ثانيًا: التوصيات.

- وجب الاهتمام بدراسة جل النظريات التي ناقشت نشوء الحضارات وتطورها والعمل الحثيث على الخروج بحقيقة علمية في هذا المضمار.

- وجب عقد المؤتمرات الدولية التي تهتم بالقضايا الحضارة، والعمل على التكامل الحضاري بديلًا عن الصراع البادي.
- اهتمام الباحثين المسلمين بإيجاد حلٍّ لهذا اللغز، ما العامل المؤثر في قيام ونشوء الحضارات؟ والعمل على استثمار النتائج في حقل البناء.

قائمة المراجع والمصادر

المعاجم:

- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب (بيروت: دار صادر، د.ط، د.ت).
- ابن فارس، أبو الحسن أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون (د.م: دار الفكر، د.ط، ١٩٧٩).

الكتب:

- ابن خلدون، عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون (القاهرة: دار ابن الجوزي، ط١، ٢٠١٠).
- بن نبي، مالك، شروط النهضة، تقديم: رضوان السيد (الدوحة: وزارة الثقافة والفنون والتراث، د.ط، د.ت).
- بن نبي، مالك، مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين (دمشق: دار الفكر، ط٤، ١٩٨٤).
- بن نبي، مالك، مذكرات شاهد للقرن (دمشق: دار الفكر، ط٢، ١٩٨٤).
- السعيد، فؤاد، خليل، فوزي، الثقافة والحضارة مقاربة بين الفكرين الغربي والإسلامي (دمشق: دار الفكر، ط١، ٢٠٠٨).
- خليل، عماد الدين، التفسير الإسلامي للتاريخ (بيروت: دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٨١).
- عارف، نصر محمد، الحضارة- الثقافة- المدنية: دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم (عمان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٢، ١٩٩٤).
- مؤنس، حسين، الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها (الكويت: عالم المعرفة، د.ط، ١٩٧٨).
- توينبي، أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة: فؤاد شبل (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١١).
- توينبي، أرنولد، الفكر التاريخي عند الإغريق، ترجمة: لمعي المطيعي (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، د.ط، ١٩٦٦).

- عبد الرؤوف، عبد القادر، أثر الحضارة الإسلامية في المجتمعات الإنسانية (القاهرة: دار الطباعة المحمدية، ط١، ١٩٩٤).
- ديورانت، ول، قصة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمود (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، د.ط، ١٩٦٥).
- ماركس، كارل، انجلز، فريدريك، البيان الشيوعي، ترجمة: العفيف الأخضر (بيروت: منشورات الجمل، ط١، ٢٠١٥).
- سلطان، جاسم، فلسفة التاريخ (المنصورة: مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع، ط٤، ٢٠١٠).
- ماركس، كارل، مخطوطات عام ١٨٤٤ الاقتصادية والفلسفية، ترجمة: محمد مصطفى (القاهرة: دار الثقافة الجديدة، د.ط، د.ت).
- أتالي، جاك، كارل ماركس أو فكر العالم، سيرة حياة، ترجمة: محمد صبح (دمشق: دار كنعان، ط١، ٢٠٠٨).
- كوماس، جوان، خرافات عن الأجناس، ترجمة: محمد رياض (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، د.ط، ٢٠١٤).
- علم الدين، نيفين، فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١).
- العويسي، عبد الله بن حمد، مالك بن نبي.. حياته وفكره (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط١، ٢٠١٢).
- جدعان، فهمي، أسس التقدم عند مفكري الإسلام (عمان: دار الشرق، ط3، 1988).

الأبحاث علمية:

- حكيمة، وشنان، "النظرية العلمية وعلاقتها بالبحث العلمي، البحث الاجتماعي نموذجًا"، مجلة آفاق للعلوم، العدد السابع، ٢٠١٧.
- الزعبي، أمجد، "من التحدي والاستجابة إلى الدولة العالمية: قراءة في فلسفة أرنولد توينبي"، مجلة الآداب، ع١٢٨، ٢٠١٩.

- حبيب، بهاء موسى، "قيام الحضارة وسقوطها في نظرية أرنولد توينبي"، مجلة كلية التربية للبنات للعلوم الإنسانية، المجلد الثاني، ع٤، ٢٠٠٩.
- شبل، فؤاد محمد، "دراسة للتاريخ لأرنولد توينبي"، مجلة تراث الإنسانية، المجلد الثالث، ع٥، ١٩٦٥.

المراجع الأجنبية:

- **The New Encyclopedia Britannica, 15 Th. Ed., Vol. 4, The University of Chicago, 1973-1974.**